المجلة الدولية للدراسات اللغوية والأدبية العربية
المجلد١العدد١- ٢٠١٩، ص٣٨- ص٥٣
https://doi.org/DOI:10.31559/JALLS2019.1.1.3

رفاد للدراسات والأبحاث
www.refaad.com

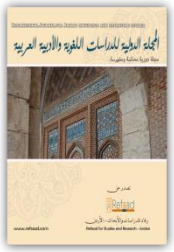

السراب المخادع: " قراءة تحليلية نقدية في كتاب رسائل لم تصل بعد"

نادي ساري الديك

الأستاذ الدكتور في جامعة القدس المفتوحة- رام الله- فلسطين
ndeek@qou.edu

الملخص:

رسائل لم تصل بعد، من الكتب التي لقيت رواجاً على الصعيد العالمي، لذا تُرجمت إلى أكثر من لغة، وحاز على جوائز من جهات متعددة، وطُبع أكثر من مرة باللغة العربية، لأنه يحمل أفكاراً لها مساس بالحراك السياسي في المنطقة العربية، وبالذات ما يخص الصراع العربي الصهيوني تجاه قضية فلسطين، حيث يُقّر الكاتب بأحقية دولة إسرائيل في الحياة والبقاء على الأرض الفلسطينية المغتصبة، ويدعو إلى قيام دولة فلسطينية على الأرض الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧، متناسياً القرارات والمواثيق الدولية التي تنادي بحقوق الشعب العربي الفلسطيني، وكذلك حقوق اللاجئين وغيرها من الأشياء المنبوذة من قبله، فنجده يسبق أصحاب الفن الممكن في طرح أفكاره والدفاع عنها، عبر لغة جميلة صافية رقراقة، مليئة بالتضمينات والحواريات والمرتكزات الفنية والفكرية، من أجل التمهيد لأفكار مستهجنة (من أصحاب) الشأن، مبحوث عنها من فلاسفة السياسة الغربيين والمنخرطين تحت لوائهم.

بذلك جاءت الدراسة كي تكشف الحقائق الدامغة التي يحاول الكاتب تناسيها أو تغييبها، إن كان ذلك عن قصد أو بلا قصد، وإن كانت الأفكار تشي عن حالة تفاعلية معها من الكاتب، المدافع عنها والداعي لها في الوقت نفسه.

الكلمات المفتاحية: السّراب، نقد، رسائل.

CC BY

المقدمة:

عزّت الغزاوي من الشخصيات الأدبية المعروفة في الوطن الفلسطيني وبعض الأقطار العربية والأوروبية التي لها مساس في الحراك السياسي المصاحب لقضايا الشرق الأوسط،وذلك لمواقفه السياسية وارائه المؤيدة لفن الممكن، لذا نجد بعض نتاجاته الأدبية قد ترجمت إلى لغات أوروبية متعددة، مثل الإنجليزية والفرنسية والنرويجية، تلك الدول صاحبة الطروحات والوساطات السياسية، فيما يخص بعض قضايا الوطن العربي، وبالذات ما يخص الصراع العربي الصهيوني.

وبما أنّ الباحث على مساس متواصل بالنتاج الأدبي المعاصر في الوطن العربي عامة، والنتاج الأدبي في فلسطين خاصة، فقد أقام مجموعة من الأبحاث والدراسات على النتاج الأدبي الشعري والنثري لمجموعة من الكتاب العرب الفلسطينيين، فكان أن قرأ جلّ نتاج عزت الغزاوي الإبداعي أُسوةً بنتاج غيره، وأقام دراستين منفصلتين على روايتيه، "عبد الله التلالي وجبل نبو" وخبر عن قرب النتاجات الإبداعية الأخرى، يستثنى من ذلك كتابه المعنون "رسائل لم تصل بعد"، استمر ذلك حتى شهر أيار ٢٠٠٥م، عندما نظمت وزارة الثقافة حلقة دراسية عن الكتاب نفسه بجامعة بيرزيت، بحضور مجموعة من الطلبة وأساتذة الجامعات، وكان الباحث أحد المشاركين في تلك الندوة المعنية. لذا تبيّن أنّ نتاج عزت الروائي يَعمد الى طرح أفكاره الخاصة بشكلٍ غير صريح (الغزاوي، عبدالله التلالي،١٩٩٨م)؛ بينما "رسائل لم تصل بعد" يختلف في النهج والطروحات عن غيره من الكتب، لأنه يحمل بين ثناياه أفكاراً خطيرة ومؤلمة إلى حد بعيد، خاصة أنها صدرت عن كاتب له مكانة خاصة لدى المهتمين في الشأن الثقافي في الوطن الفلسطيني، زيادة على المناصب التي كان يترأسها وأهمها رئاسة اتحاد الكُتّاب الفلسطينيين . القدس، ومن ثم الظرف الزماني الذي ظهرت فيه تلك الأفكار والطروحات التي بشّر بها الكاتب، حيث أنها سبقت طروحات أصحاب الفن الممكن والمشاريع السياسية التي تنادي بحلول آمن بها أصحابها دون النظر إن كانت تلك الحلول إيجابية أم سلبية، ونتيجة للمعطيات الفكرية وعدم انسجامها مع معطيات الفكر العام للباحث، وخطورة الطرح، إرتأينا أن نستتبع تلك الأفكار، عبر أسطر بحث علمي يقوم على الموضوعية والمصداقية في الطرح والأداء، لأنّ ما جاء به الكاتب لا يمسّه منفرداً، وإنّما يمسّ كلّ إنسان له علاقة أو مساس من قريب أو بعيد بالقضية الوطنية والقومية للشعب العربي الفلسطيني المتأصلة في العقل والنفس معاً.

لذا بدأنا بالتعريف بالكتاب المعني وصاحبه بعد ذلك، والمحورية التي يقوم عليها الفكر المسيطر على الكتاب، ثم نبين اللواعج الإنسانية التي واكبت عملية التسلسل الفكري، ومن ثم دعمنا عملية البحث ببعض المُستلاّت المستقاة من مصادر مختلفة، وذلك تدعيماً للفكرة التي نبحث وندافع عنها، وقد توّجنا البحث بعنوان له دلالاته الفاعلة ألا وهو "السّراب المخادع"، لأنّ الفكرة التي آمن بها الكاتب ما هي إلاّ سراب يحسبه الظمآن ماءً، لكنّ السراب المعني هنا نجده مخادعاً وليس خادعاً فقط،وقد توجنا البحث بخاتمة وأثبتنا قائمة المصادر والمراجع التي أفاد منها الباحث، حتى غدا البحث شاخصا في النور،وقد اعتمدنا المنهج التحليلي في بناء البحث المعني .

الكتاب في سطور

إنّ من يقرأ كتاب "رسائل لم تصل بعد" يتيقن أنه كتاب يضم مجموعة من الرسائل عددها إحدى وثلاثون رسالة، بدأت بالرقم (١) وانتهت بالرقم (٣١)، ظهرت الطبعة الأولى عن دار العودة بالقدس في شهر أيلول عام ١٩٩١م، وامتدت صفحات الكتاب حتى وصلت إلى مئة وثلاث وعشرين صفحة، قدم لها الدكتور عبد الكريم أبو خشّان بنوع من الإطراء الفضفاض، غير آبه للأفكار المطروحة عبر أسطر الرسائل التي افتتن بها، وجاء إطراؤه عبر ست صفحات كاملة، فكأن التقديم أريد به مفتاحاً لكسر الهوة بين مضامين الرسائل الفكرية وقرّاء الرسائل فيما بعد، لأنّ مثل ذاك التقديم لا يأتي من فراغ، وإنما يعني التجاذب في الأفكار وطرح المضامين.

في شهر تشرين الثاني عام ١٩٩٤، ظهرت الطبعة الثانية من الكتاب عن مطبعة دار الكاتب وبدعم من آتحاد الكتاب الفلسطينيين، القدس، ومن يوازن بين الطبعتين، يجّد أنّ غلاف الطبعة الأولى أكثر إيحاءً وتأثيراً في النفس من غلاف الطبعة الثانية وكذلك الخطوط، ولا نجد شيئاً في الطبعة الثانية يختلف عنه في الطبعة الأولى، وفي شهر نيسان من عام ٢٠٠٥م، قامت وزارة الثقافة بإعادة طبع الكتاب على صفحات العدد العاشر من كتابها الشهري، وجاء في اثنتين وثلاثين صفحة، مزينة برسومات للفنان الفلسطيني أحمد كنعان، إلاّ أنّ المضامين وغيرها لا تختلف شيئاً، وإن وجدنا أسطراً قد كتبها الشاعر الفلسطيني غسان زقطان تحت عنوان "طريق المرايا" يمدّح بها أسطر الرسائل ومضامينها بلغة شفافة جميلة.

لقد كتبت تلك الرسائل إبان اعتقال الكاتب بعد اندلاع الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧م، إذ بقي في المعتقل مدّة عامين، ثم ظهرت تلك الرسائل على شكل كتاب عام ١٩٩١م، فلا ندري إن كتبت داخل جدران المعتقل أم بعد خروج صاحبها منه، ومن يتأمل تلك الرسائل في لغتها وأفكارها وقيمها وسلامة أسلوبها لا يقر أنها كُتبت داخل جدران السجن لما تحمله من حواريات ومسميات وسرديات جميلة، إلاّ أننا لا نريد أن نبخَسَ الكاتب حقّه فنقول: أنها قد تكون دوّنت أفكارها داخل المعتقل، وأُعيد صياغتها بعد خروج صاحبها لفضاءٍ وحريةٍ أرحب، لذلك نؤكد أننا أفدنا من طبعات الكتاب الثلاث.

حياة الكاتب

وُلد الكاتب عزت الغزاوي في قرية دير الغصون التابعة لقضاء طولكرم عام ١٩٥١، ينتمي لأسرة هجّرت من قريتها قاقون عام ١٩٤٨م، تعلم في مدرسة دير الغصون ومن ثم أكمل تعليمه الإعدادي والثانوي في مدرسة عتيل الثانوية.(دليل الكتاب الفلسطينيين،١٩٩١م)

بعدها التحق بالجامعة الأردنية ليتخرج في قسم اللغة الإنجليزية بدرجة البكالوريوس، ثم نال درجة الماجستير في الأدب الإنجليزي من جامعة ساوث داكونا بالولايات المتحدة الأمريكية.

عمل معلماً بالمدارس الحكومية بمدينة طولكرم، ثم أصبح محاضراً بجامعة بيرزيت.

عزت متنوع العطاء، فقد كتب الرواية والقصة والرسائل الأدبية، وله مجموعة من الروايات والقصص المطبوعة، والمترجمة إلى لغات متعددة، وله كذلك مجموعة من الدراسات والأبحاث، وقام بجمع النتاجات الشعرية لشعراء فلسطينيين، ثم ترجم مجموعة من الأعمال الإبداعية إلى اللغة العربية، نال عزت الغزاوي مجموعة من الجوائز منها: جائزة الحرية في النرويج، وجائزة فلسطين في الرواية، وجائزة زخاروف للسلام من الاتحاد الأوروبي.(كتاب الشهر،الكتاب العاشر،٢٠٠٥م)

تُرجمت رسائله (رسائل لم تصل بعد) إلى الإنجليزية عام ١٩٩٣ ثم إلى اللغة النرويجية عام ١٩٩٤م، وترجمت إلى الفرنسية، وفاز الكتاب بالجائزة الدولية في تشرين أول ١٩٩٤ عن مؤتمر ستافنجر للدول الاسكندنافية، عقد حول حرية التعبير(رسائل لم تصل بعد،١٩٩٤م). لذا لا ندري ما المقصود بحرية التعبير هنا؛ لأنّ الكتاب يحمل أفكاراً وثقافاتٍ تُناغي الغرب المنحاز للصهيونية وتدافع عن منطلقاته السياسية، ويؤكد أحقية العدو في الحياة على حساب شعبه وأُمّته.

اعتقل عزت لمدة عامين إبان الانتفاضة الأولى بعد عام ١٩٨٧م، واستشهد ابنه رامي عام ١٩٩٣، حيث انتخب أميناً عاماً للتجمع الوطني لأسر شهداء فلسطين.

وهو من مؤسسي آتحاد الكتاب الفلسطينيين، وكان عضواً في الهيئة الإدارية إلى أن أصبح رئيساً للاتحاد، حتى عُيّن وكيلاً لوزارة الثقافة قبل وفاته بثلاثة شهور عام ٢٠٠٣.(الكتاب العاشر،٢٠٠٥م)

الاستهلال

استهل عزت رسائله بنص من (مسرحية ايسخلوس) الإغريقية، التي تحمل في ثناياها مداليل متعددة، فكأن النص قد قيل الآن، لأنه ينطبق على كلّ صاحب قضية، تتجذّر فيها روح المعاناة، وتتلبد غيومها في السماء، كي تعكس صورة شعب يعاني التشريد والتقتيل لأبنائه، والأسر لمريدي الحرية من الناس.

"مرة أخرى تزورني نبوءة الصدق، ذلك استهلال مُذهل-

أترون أولئك الذين يجلسون أمام البيت؟- إنهم أطفال كأطياف الحلم- أطفال يبدون وكأنهم قتلوا بأيدي أهلهم- إنهم يملأون أيديهم باللحم، لحمهم، يحملون الأحشاء والأمعاء، قبضاتهم مليئة بالأسى- انظروا جيداً لما يحملون، ذات الطعم الذي ذاقه آباؤهم...- ما هو مقدّر سيحدث- ستعترفون بحسرة وأسى أنني حكيت الحقيقة. (رسائل لم تصل بعد،١٩٩٤م)

إنّ حالة الاقتباس هذه ليست اعتباطية، وإنما تعني ما تعنيه من أنّ الفن الخالد يبقى متجدداً في نفسه على مدار الزمان، فكلّما تمثل به الإنسان يشعر بجديده وجديته، أمّا الاعتذار الذي تلا نص الاقتباس، (عَنونه للرمز)، الرمز الذي لم يُسَمَّ ولم يُشخّص، وإن يسهل على الإنسان أن يعرف دلالته، علماً أنّ عدم تخصيص الاعتذار لمسمى مجسد واضح، يبقى أكثر شمولية، بذلك تتعدد حالة البحث والتفسير، عندها قد يكون الرمز هو (القائد) أو الشهيد أو الفاقد لأحد أحبابه، أو لمن ثكلت وهُدم بيتها وشرّدت أسرتها، وغير ذلك من الاحتمالات تجاه الرمز. "لم يكن بالإمكان أن أكتب رسائلي هذه دون اعتذار لرمز المرحلة . بابنا العالي إلى الأبد، رغم احتياطنا الدائم وخوفنا من الحدود- إلى درجة الاكتفاء بفهم الرمز...". (رسائل لم تصل بعد ١٩٩٤م)

الرموز والمداخل السبعة

لم يكتف صاحب الرسائل بخلق رمزية معينة للمخاطب، وجعلها مفتوحة الأبواب، كي تتعدد الدلالات، إلاّ أنّه يواصل عملية التحاور مع من يراه صالحاً للتحاور، بذلك جاءت مفرداته مفعمة بالجمال إلى حد بعيد، وقد ضمّن جُملهُ بروحية المتنبي ونصّه، ثم يعمد إلى المقنّع الكندي ويتبنى موقفه، لكن هذه المرّة يعمد إلى روحية المعنى ويصيغها باسلوبه النثري، على شاكلة التساؤل "فما أنت فاعل لو أكلوا لحمك أو هدموا مجدك؟". (رسائل لم تصل بعد ١٩٩٤م)

مما يجعل حالات التساؤل متعددة الأوجه والنوايا، حتى ينفث إلى نفوس الآخرين، الذين يُعتقد أنهم سوف يقرأون نصّه، دون النظر إن وافقوه في المنطلقات والمعطيات، أم عارضوه في المنهج والبواعث، إلاّ أنّ الأمر يخلق حالة من التفاعل مع النص لما يحمله من حالة افعام في العمق الثقافي والجمال اللغوي، وقد نجد من يخالفونه في الفكر والتوجهات، لأن انسياب الفكرة دون ضوابط تخلخل حالة التلاقي مع جماليات النص المتعددة، لأنّ الفكرة الأصيلة والمصداقية العالية مع الجماليات الأخرى، من المقتنيات النّصيّة التي تجعل النّص فاعلاً مفعلاً معاً.

بعد الاعتذار المتعدد الدلالات والتوجهات، نراه يبدأ بالمداخل السبعة، وما تحمله من جماليات، وما تحمله تلك الجماليات من حالات انبعاثية، عبر تراكم حالات الهم، حتى أن لغته تتداخل مع لغة الشاعر محمود درويش، فيقف الإنسان في حيرة من أمره، تجاه لغته، فلا يدري إن كانت تلك المفردات لصاحب الرسائل، أم أنها للشاعر محمود درويش، المقلَّد من قبل كثير من الكتاب والشعراء، والباحثين عن الإبداع، إن كان في التقليد إبداع.

فكما يدوّن "إذا ما جاء أصحابي أيا أماه قبل العصر خلف البيدر المطحون بالخطو البريء، ورأيت هامات الصغار تكدّرت من صوت بارود ونار فخذي بإبريق الوضوء، وغسّلي أحلامهم وعلى سحاب يمتطي أعمارهم، فلتنشريها قبل أن يأتي نهار". (رسائل لم تصل بعد ١٩٩٤م)

إنّ هذه اللغة تجعل القارئ يستتبع النغم الإيقاعي للنشيد المر، إظهاراً للمعاناة بصورة عاطفية شفافة جميلة، خالقة حالة استقطابية كي يتوحد مع المكان، ويظهر نوازع الوجدان عند الآخرين المشاركين له حالات عيشه المتعددة، وبالذات ما يعانيه المسجون من السجّان، بذلك نجد الشاعرية وقد خفتت عندما يتعلق الأمر بملازمة المكان، وتخفت الصور الاستقطابية لتعود الحالة السردية

واصفة معاناة الآخرين، كما هو الحال مع المسجونين غيره، "فما الذي سيحدث لي في هذه الزنزانة المخفية عن العيون، تساءلت كثيراً إن كنت سأحظى برؤية أقدام طاغور أولوركا أو درويش تقلع رويداً رويداً من متاهة الميناء". (رسائل لم تصل بعد،١٩٩٤م)

إنّ عملية التعلق برموز إنسانية (إذا جاز التعبير) كما هو الحال مع لوركا وطاغور ودرويش لهي عملية مقصودة، من أجل خلق لازمة فنية وذهنية تسعف الكاتب والقارئ معاً، حتى تتضح الصورة الكلية للتداخل الثقافي والفكري لدى أبناء البشرية جمعاء، دون وضع العوائق والدساتير التي تحول دون الانتهال من مذاقات تلك الثقافات المنادة والرافدة للكاتب المُتبنّي لها، والمدافع عنها عبر أسطره، وكأنه يوقن مما يجعل الآخرين يوقنون أنّ التشابه في الحالات التي يمر بها الناس، تخلق لديهم حالات انطباعية مؤكدة في التشابه والتماثل، لذا نرى عملية التناوب التخيلي يسدل همومه على الكاتب (السجين)، مما يجعل حالة من التبدل تطرأ في حياته، فيكون الطرح مختلفاً والتأمل والاستحسان كذلك.

لذا نجد عملية التوازن بين داخل جدران الزنزانة، وما يقع خلف تلك الجدران من نظم حياة مختلفة، مجسداً صورة حياته في غرفة نوم هانئة، "كانت أول مرّة أخرج فيها من الزنزانة إلى فضاء ساحة فسيحة، كيف استطعت أن أمكث شهراً كاملاً بين جدران زنزانته، وأنا الذي كنت كالفراشة لا أستطيع أن أبيت ليلة دون أن أصحو مرّة على الأقل لأفتح باب النافذة أطل على المدى، ألمس الليل بيدي وأشم أنفاسه الهاربة من وجع العتمة". (رسائل لم تصل بعد،١٩٩٤م)

الصور البلاغية الفاعلة في النص هنا، جعلها الكاتب مدخلاً لحوار يقيمه مع ممثل الصليب الأحمر عند زيارته له في سجنه، علماً أنّ المسجون لا يعرف مكانية السجن، وإن كان مسجوناً في وطنه المغتصب على مراحل متعددة، فمن خلال الحوار بين الكاتب وممثل الصليب الأحمر (كلود) يتيقّن المرء أن هناك معرفة خاصة بين المتحاورين، تلك العلاقة التي نسجتها كلمات الكاتب، حتى يرينا نمطية الحياة التي يحياها الفلسطينيون بحيثيّاتها المختلفة وما تكون عليه حياة المجتمعات الأخرى ممثلة في المجتمع السويسري المنتمي له (كلود) "هل صحيح أنّ جبال الألب أعطتكم شعوراً داخلياً بالأمان فترة طويلة من عمر الزمان؟ ليتنا هنا في فلسطين استعطنا أن نشعر أنّ البحر يعطينا نفس الأمان... إنه بدل أن يعطينا أخذ منّا... كلود كان البحر أمامنا والنهر وراءنا ولكننا بدل أن نشعر بالأمان شعرنا بمصيدة، أما أنتم في سويسرا فقد أعطتكم الألب (دون أن تأخذ منكم). (رسائل لم تصل بعد،١٩٩٤م)

المقارنة بين سويسرا وفلسطين مقصودة بحدّ ذاتها، وإن كانت المسألة أعمق من القصدية، وغير جائزة معاً؛ لأنّ سويسرا تتمتع بقيم وثقافات واستقرار غير التي نجدها في فلسطين أو نجد فلسطين أرضاً وشعباً قد حرمت منها، فالمقارنة هنا تخلق حالة استفزازية ذهنية ونفسية معاً، تعيدنا إلى تاريخ مجيد ممثل برمزية طارق بن زياد الذي عبر البحر شمالاً للأندلس وحرق سفنه وقال خطبته الشهيرة، البحر وراءكم والعدو أمامكم مالكم والله إلاّ الجد والصبر"(التلمساني،١٩٨٨م)، فعندما تمثل الكاتب وقال: "أيها الناس أين المفرّ؛ البحر من ورائكم والعدوّ أمامكم، وليس لكم والله إلاّ الصدق" يُحيلُنا إلى ما نَصْبو إليه من عملية المقارنة بين الماضي والحاضر، إلاّ أنّ الكاتب قد استخدم الفعل (كان) ويريد ما مضى من الزمان؛ فكأنه يقول: كانت فلسطين محاطةً بالبحر غرباً والنهر شرقاً جغرافياً، وبما أنّ العدو قد انتشر في أمكنة متعددة، فلم يعد للنهر حرمة كما كان سابقاً، فيكون العذاب والاضطهاد لفلسطين عنواناً مؤكداً، مما يخلق حالة مؤلمة في أوجهها المتعددة لدى الكاتب، ليرينا تداخلاً في الحوار لم يقف عند حد معين، فيسبغ على نصّه شاعرية مفعمة بصورها وأخليتها، حتى ينعكس ذلك على نفسية المتلقي فيما بعد، فتجسد روحية لوركا الشاعر الإسباني الذي اتخذ منه الكاتب ركيزة أو منطلقاً فكرياً وثقافياً مع غيره من أنداده المفكرين والشعراء والكتّاب، كي تبزغ صورة للعيان، فيكون قد حقق ما يريد من مكاسب ذهنية وفكرية يعتقد أنه يعيش حالة مشاركة فيها مع أصحابها ومريديها، فيكون التلاقي مع الهم واحداً كما يظن.

الحواريات المقصودة

إنّ رمزية لوركا وغيره لم تحل دون توجهات الكاتب الفكرية والثقافية التي بدأ يخطط لها وبها حتى ينفذ إلى عقول الآخرين، فتتوحد حالات التلاقي بين الكاتب والطارحين للأفكار التي يؤمنون بها، ومن ثم أصبح يدافع عنها أو يؤمن بها على أقل تقدير، وهذا ما تجسده عملية الاسترجاع على الصورة المبطنة التي انتابت الكاتب وهو يحاور أو يسرد علاقته مع الشاعر اليهودي "يئير هوروفيتس" الذي قضى إثر عملية جراحية في القلب ببروكسل بتاريخ (١٩٨٨/٧/٢٦).

الحوارية التي أخذت الرقم الرابع من الرسائل، تحمل ما تحمله من دلالات مؤلمة وقاسية تجاه الكاتب أولاً وشعبه، وأمته ثانياً، لأنها قد جسدّت طموح الكاتب الفكرية والسياسية، والطروحات التي غدا يؤمن بها ويدافع عنها في العلن دون الخفاء، وهي بمثابة الشرارة التي أوقدت الهشيم فيما بعد، لذا نجد الكاتب يتعامل مع روحية المؤمن بالسلام، والدّاعي له عبر حواريته مع الشاعر (يئير)، بمفردات توضح كيفية إيمان الغرب المنحاز للمحتلين بروحية السلام، وكيفية الحياة الليبرالية التي يحب أن تسود في الحياة، وهذا تجسيد لحلم غربي يسعى إليه المهتمون من مفكري الغرب من قبل مفكر وكاتب عربي فلسطيني، كان ولم يزل رأس الطعم الذي

يقدم للجسد العربي والإسلامي فيما بعد "عزيزي يئير: تأخرت في الكتابة إليك، وحين فارقت الحياة بكيت عليك، وها أنت تزروني الآن في زنزانتي لحظة واحدة تذكرني بموت الأب فوق الهاوية... كان لا بدّ أن تعيش لتكتب عن السلام- كان لا بد أن تعيش زمن الانتفاضة وترى بنفسك هذا الامتهان الفاضح للإنسان، إنهم يموتون عرباً ويهوداً . والكل ينتظر معجزة السلام... ولكن هل هناك ضرورة ماسة لمزيد من الانتظار؟ يئير مرة أخرى أقول لك كم كنا بحاجة لصوتك... ربما كنت ستقول إنهم اغتالوا صوت السلام الجهوري الذي انطلق به مارتن لوثر كنج، أو إنهم طردوا الدلاي لاما من التّبت وقتلوا عشق عينيه للهملايا الممتدة كالخضاب نحو الشمس، فماذا يستطيع أن يفعل شاعر مثلك خذله قلبه وسط الزحام؟". (رسائل لم تصل بعد،١٩٩٤م)

إنّ الخطاب الموجّه يحمل كثيراً من المغالطات القاتلة تجاه إنسانية الإنسان في فلسطين، وتمثل ذلك في المساواة بين شهداء الانتفاضة والإسرائيليين، وكأن موازين القوى واحدة، وهنالك دولتان لشعبين اعتدت احداهما على الاخرى وكان الموت نتيجة الاعتداء، في حين أنّ الحقيقة غير ذلك، ولا يحتاج الإنسان إلى براهين صعبة حتى يجدها عبر أسطره المكتوبة، لأنّ فلسطين أرضاً وشعباً وثقافة معتدى عليها من الإسرائيليين المهاجرين إليها من أصقاع مختلفة من الدنيا، حتى يحققوا حلم الحركة الصهيونية وليس حلم الديانة اليهودية، وما الانتفاضة إلاّ مظهر سلمي من مظاهر رفض الاحتلال والاستيطان، فهل يتساوى القاتل والمقتول في النتيجة؟ أم أنّ طروحات الغرب الذي أسس الحركة الصهيونية هي السائدة على فكرة الكاتب وطموحه.

أمّا ما يتعلق بخطابه للشاعر (يئير) ذاته فنرى فيه نوعاً من فتح طريق عريض على سياسة الغرب وفلسفاته، فعندما يرد ذكر (مارتن لوثر كنج) داعية السلام والمساواة الأمريكي الأسود و(الدالاي لاما زعيم قبائل التّبت الصينية)، فما ذاك إلاّ من باب مخادعة الذات، وكأنه يقول إن من يُريد السلام ليس مرغوباً فيه عند النُظم السياسية الرافضة لمثل تلك الدعوات، لذا نرى أنّ مثل ذلك مغالطة واضحة، لأنّ مارتن لوثر الأمريكي يدعو إلى المساواة مع أبناء شعبه دون النظر إلى اللون والعرق والثقافة، فهو من الشريحة المظلومة نتيجة للتمييز العنصري في الولايات المتحدة الأمريكية، زِدْ على ذلك لم تكن الأرض الأمريكية مستعمرة من الآخرين في مرحلة الستينيات من القرن العشرين عندما قتل (مارتن لوثر كنج)، فالمساواة التي يطالب بها مارتن لوثر لا تنطبق بحال من الأحوال على فلسطين أرضاً وشعباً، لأنّ الشعب الفلسطيني شرّد وهجّر وصودرت أرضه عنوة حتى يقام عليها دولة جديدة تخالفه في الفكر والوعي والثقافة والمعتقد، لذا ليس سهلاً على الإنسان أن يقارن كما فعل الكاتب مع لوثر، وبالنسبة للداعية التّبتي (الدلاي لاما) لا نجد ما ينطبق عليه ينطبق على فلسطين ومفكريها، لأنّ التبت جزء من جغرافية الصين، وهو يحمل عقيدة تخالف قيم الفكر السياسي للحزب الشيوعي الصيني، فغدا الخلاف قائماً، وهذا أمر غير مستهجن في أزمنة الحياة وأمكنتها المختلفة. ونُضيف: لو كان الدلاي لاما مؤيداً للصين أو روسيا ومخالفاً للغرب .وأمريكا بالذات .لما كان الطرح على هذه الشاكلة، ولما ذُكر بهذه الحميمية.

لذا لا نجد معيارية صادقة تجيز للكاتب أن يتمثل به، وإنما نراه يمهد لخطوة أبعد وأعمق في الدلالة والمغزى، حتى لا يصدم المتلقي بفكرته، وكأنه يقول: إنّ دعاة السلام والمساواة منبوذون من الحكومات وبعض الشعوب، وهذه مغالطة كبرى أيضاً، لأن السلام أسمى ما يكون عندما يتحقق بين الشعوب والدول، التي بينها مشاكل في الحدود والثروات، لكن ليس هذا السلام الذي تطمح إليه الشعوب المستعمرة والمكبلة كما هو الشعب الفلسطيني.

المساواة الظالمة

مما تقدم نحدس أنّ الكاتب كان يمهد لفكرة أعمق ودلالة أعظم من خلال مخاطبته للشاعر اليهودي (يئير)، حيث جعل يئير من يمثل حلم الآخر الباحث عن السلام في منطقة تعج بالظلم والسيطرة الاستعمارية والاستيطانية معاً، وإنّ كان (يئير) الشاعر هو ابن للآخر وجزء منه ويمثل بعض ثقافاته المتعددة، كما هي أعراقهم ولغاتهم متعددة أيضاً.

على الرغم من ذلك، نجد صاحب الرسائل يتودّد للآخر ومريديه والمدافعين عنه عبر شخصية (يئير) الشاعر، علماً أنّ مفردة (الآخر) ودلالاتها من صنع الكاتب وأمثاله الرافضين لمفردة عدو أو مغتصب أو مستوطن، أو أي مسمى آخر يليق بالمخاطب، لذا نجد المفردة وقد غدت مفعّلة في النصوص الإبداعية والبحثية عند المؤيدين لفكرة التعايش وغير ذلك، وإن كان جلّ الأدباء والباحثين في الوطن العربي عامة وعلى أرض فلسطين خاصة يرفضون مسمى الآخر، ويتعاملون مع العدو برمزياته ودلالاته دون مواربة، كل ذلك يعود إلى القناعات والحالة اليقينية التي يعيشها الإنسان أو يبحث عنها انتصاراً للذات والفكر معاً.

نجد الكاتب وقد وضع الإبهام على عين المسألة وجعلها مشخصة كما يريدها وأمثاله الباحثين عن سلامهم، ويمثل ذلك في مخاطبة الشاعر (يئير) بعد تلك المقدمات والمرتكزات الهادفة والملغومة معاً، حيث يقول: "لن أغضب إن قلت لي أنّ بن غوريون جسّد لكم الحلم لدولة تلّمون فيها شتاتكم بعد ضياع استمر قروناً طويلة من الزمن، لكن ألست تؤمن معي أننا أيضاً ننظر إلى ياسر عرفات

من نفس الزاوية؟ إنه أيضا يريد أن يجسّد لنا حلم الدولة المستقلة ليلم ليل الشتات تحت سماء نابلس ورام الله والقدس الشرقية". (رسائل لم تصل بعد،١٩٩٤م)

خطاب الكاتب كما نظن لم يأت عفو الخاطر، ولا نلمس عفوية فيه أو براءة، وإنما نجده مليئاً بالفكرة والاندفاعية نحو تحقيقها دون عائق أو تردد، وغير آبه بمشاعر ومواقف الآخرين الرافضين للفكرة ومسوغاتها، لأنّ مثل تلك الأفكار لا تخص الكاتب وحده، لأنها تمس قضية شعب وأرض ووطن وأمة وعقيدة وثقافة، وغير ذلك من الممسوسات المجروحة، فمن حقنا أن نتساءل ونضع التساؤلات المتعددة تجاه الأفكار التي يطرحها الكاتب ونقول:-

إنّ هذا الطرح يعطينا تفاسير متعددة أو فهماً متعدد الأوجُه، فقد تكون الحالة تنبؤية تخيلية محضة، كما حدث ويحدث مع الشعراء المتخيلين وأصحاب النبوءات البشرية التي لا علاقة لها بالنبوة السماوية، أو قد تكون المسألة حالة من الاستقراء السياسي، تبلورت بعد حالة من التمعّن والاستقراء والاستنطاق لحركة الوعي والحصاد للحراك السياسي الذي تعيشه المنطقة منذ عام (١٩٧٣) ومن ثم طروحات السلام والحكم الذاتي ومؤتمر مدريد وصولاً إلى أوسلو، وما تبعه من منعطفات خطيرة تجاه قضيتنا الوطنية والقومية، من خلال ذلك قد يكون الكاتب قد توّصل إلى حيثيات قد لمسها من أرض الواقع فكان ما خاطب به (الشاعر يئير)، وأمّا التفسير الثالث المتحقق بعد قراءة النص، فهو أنّ الكاتب قد آمن كما آمن بعض المفكرين والسياسيين من أنّ تقسيم فلسطين بين شعبين ليقيما دولتين متجاورتين هو الأجدى، إلاّ أنّ هذه القناعة لم تبن على قاعدة قرار التقسيم الدولي البغيض الصادر عام ١٩٤٧م، وإنما جاء نتيجة للأمر الواقع الذي فرضته إسرائيل بعد ابتلاعها للأرض وتدمير الكيان العربي في فلسطين والدول المجاورة الأخرى، فتكون تلك القناعات قد جاءت ملبية للقرارات الدولية عقب حرب حزيران عام ١٩٦٧ وبالذات القرارين (٢٤٢ و٣٣٨) ومشروع روجزر للسلام، بذلك تكون إسرائيل قد أخذت ٧٨% من أرض فلسطين التاريخية ولم يبق إلاّ خمسها مع الفلسطينيين، علماً أنّ المتبقي جعلته أمريكا وإسرائيل أرضاً متنازعاً عليها نتيجة لعوامل متعددة.

وأما التفسير الرابع وهو من أمرّها وأكثرها إيلاماً، ويتمثل في استجابة الكاتب والأديب لطروحات السياسيين أصحاب التكتيك والدعابات السياسية، بذلك يكون الأمر قد وصل منتهاه، ويتمثل الأمر في زعزعة للفكر والقيم والمبادئ معاً.

وأمّا التفسير الخامس فنراه يتمثل في التقاء السياسي والمفكر الأديب في وجهة نظر واحدة، تجاه قضية معينة، خاصة إذا كان التلاقي يشكل حالة سلبية غير إيجابية، هنا تتجسد المأساة الكبرى حقيقة، ويغدو الأمر مفككاً لا رابط في روحيته وطموحات الجماهير المتمثلة في الشريحة العريضة من المجتمع والناس أجمعين، والأمر من ذلك وأعظم خسارة وانهياراً هو أن يسبق الأديب في تنازلاته السياسيين المتهالكين صوب حلول الاستسلام والخنوع، كما تمثل في موقف الكاتب، عندما أعلن صراحةً عبر نصّه أنه يعترف بعدوّه محتلاً وسيداً معاً.

إن فهمنا للنص الذي خاطب به الكاتب الشاعر اليهودي (يئير) لم يكن فهماً جزافياً أو فهماً منسلخاً عن بيئة وقيم المجتمع الذي ينتمي إليه، وإنما هو نابع من صميم الانبعاث الفكري والإنساني للناس في تطلعاتهم وهمومهم وطموحاتهم معاً؟

زِدْ على ذلك المغالطات التي أوقع الكاتب نفسه فيها، حيث حيّد كثيراً من القيم التي يؤمن بها الشعب ويدافع عنها، متحصناً بحقوقه التاريخية والإنسانية والقوانين والمواثيق والقرارات الدولية، لأنّ رؤية الكاتب ما هي إلاّ إقرار خطي بحق إسرائيل في الحياة وبقائها في الوجود على ٧٨% من أرض فلسطين التاريخية؛ ضارباً بعرض الحائط المشاعر الإنسانية والوطنية والقومية للشعب العربي والإسلامي، والقرارات الدولية التي تؤكد حقوق الشعب الفلسطيني التاريخية والثقافية والجغرافية، علماً أنّ مثل هذا الإقرار لم يخلق حالة تبادلية مع بعض مفكري إسرائيل المؤمنين بالسلام كما يعتقد الكاتب، من أن يعترفوا بأحقية الشعب الفلسطيني في قيام دولته على أساس قرار التقسيم الأممي (١٨١) الصادر عام ١٩٤٧م، وكذلك حق العودة والتعويض للاجئين الفلسطينيين المطرودين من ديارهم والمحرومين من أبسط حقوق الإنسان، فلو كان مثل ذلك قد أحدث تبادلية واضحة الدلالات، لكان ذلك مسوغاً للكاتب في أن ينطلق من منطلقاته وأفكاره كيفما شاء، لأنه يحقق بعض المكاسب الفكرية من بعض الإسرائيليين، إلاّ أنّ الباحث لا يجد ما يبرر توجهات الكاتب وأمثاله تجاه تلك الطروحات، إلاّ قناعات شخصية محضة يُرضي بها من يجاملهم، وبعض السياسيين الباحثين عن حلم ضيق، لا أفق له ولا مستقبل، نتيجة للتنازل عن حقوق ليس من حق أحد التنازل عنها، لأنّ هذه الأفكار تشكّل "الخطر الداهم والقادم والقادر على تحريك الشارع". (المشايخ،٢٠٠٣م)

زد على ما تقدم يعترف بالقدس الغربية عاصمة لإسرائيل أو جزءاً من دولة إسرائيل، ويريد القدس الشرقية جزءاً من دولة فلسطينية، ومثل ذلك تغييب للقرارات الدولية تجاه القدس، لأنّ قرار التقسيم يجعل القدس مدينة مدولة، أي تدار من هيئة دولية غير خاضعة لأحد، مع استمرارية حرية المعتقدات والعبادات للأديان كافة، ولا نجد دولة تؤكد شرعية السيطرة على القدس من إسرائيل، حتى أنّ الولايات المتحدة الأمريكية رفضت عرضاً عسكرياً للجيش الإسرائيلي، كانت إسرائيل تنوي إقامته بالقدس الغربية

عام ١٩٦٣م، فإن كان موقف الولايات المتحدة رافضاً عرضاً عسكرياً لإسرائيل، وكانت ترفض نقل سفارتها للقدس الغربية حتى انتخاب الإدارة الأمريكية الجديدة ممثلة برئيسها ترامب، حيث أعلن صراحة اعتراف الولايات المتحدة الأمريكية بالقدس الموحدة عاصمة لكيان الاحتلال الصهيوني،منتهكين بذلك الأعراف والمواثيق الدولية تجاه القدس وفلسطين وقضيتها وحقوق شعبها المستلبة، فما بال بعض مفكرينا وأدبائنا يقرّون بما لا يقرّ دولياً أو إقليمياً أو وطنياً،فهم سباقون للارتماء في الهاوية قبل أصحاب الفن الممكن.

فالخطاب يشكل حالة معينة، تتمحور حول ذاتية الاعتراف بالعدو على الرغم من تعارض ذاك الاعتراف بالأعراف والقوانين والتقاليد الوطنية والدولية، كلّ ذلك يشكل شقّاً من شقين في محورية الخطاب، وأمّا الشق الثاني نجده يتمثل في المقارنة بين ديفد بن غوريون وياسر عرفات، فكلا الشخصين لهما رمزية عند شعبيهما، علماً أنّ بن غوريون استطاع جمع شمل شتات اليهود فوق أرض مغتصبة بعد قرون طويلة من الضياع كما يعتقدون، وتمثل ذلك نتيجة لعوامل وظروف محلية وإقليمية ودولية مهدت الطريق أمام جمع الشتات اليهودي، فتكون إسرائيل أول دولة في التاريخ تخلق بقرار دولي على حساب الآخرين، أمّا ياسر عرفات فلم يستطع تحقيق الحلم الفلسطيني، ولو كان ذاك الحلم مجتزءاً كما يريده الكاتب، وذلك لأسباب ومعايير متعددة، مما يدفعنا للقول أنّ المقارنة باهتة وغير عادلة، لأسباب متعددة لا تتمثل في مقدرة تحقيق الشتات لأحد الشعبين أو عدمه، وإنما تتمثل في أمور أخرى، هي أنّ بن غوريون حقق الحلم على حساب شعب كان حلمه واقعاً متحققاً، له إرثه الحضاري والإنساني الممتد في عمق التاريخ لآلاف من السنين خَلَون.

لذا لم يكن (بن غوريون) إلاّ أحد رموز الاضطهاد والاستعمار الحديث الذي دمّر كيان شعب ينتمي لأمة يمتد عمقها الحضاري في عمق التاريخ، في حين ياسر عرفات يمثل شعباً مظلوماً مضطهداً مهجراً، لم يتحقق حلمه المباد على أرض الواقع المتجدد في النفس والذاكرة عند كل إنسان ينتمي لجغرافية العرب والمسلمين، من هنا نقول: كيف تتم عملية المقارنة بين شخصيتين متضادتين، كل منهما يمثل فلسفة لا علاقة لها بالفلسفة الأخرى التي يناهضها، وإن كان الكاتب قد جعل صورة إنسانية لِـ (بن غوريون) عندما غضب لغضبة شاعر وأمر بتوزيع قصيدته على الجنود الإسرائيليين، أفَليسَ ذاك الموقف فيه مغالطات ومخادعات متعددة، لأنّ الانتصار للقصيدة ليس أعلى سموّاً من الانتصار للروح البشرية وإنسانية الإنسان (اللتين قتلهما بن غوريون) على أرض العرب في فلسطين وغيرها، فكيف تكون تلك الحميمية مع من كانت تجاه رمز يتمثل فيه الشر، فهل موقف محدد من بن غوريون يجعله رمزاً منددا لياسر عرفات؟؟؟، بل يسدل عليه لمسة إنسانية أكثر بكثير "كان بن غوريون عظيماً في نظركم، إنه لم يستطع أن يوقف أحداث العنف كلها، لكنني لا أخاف من أحد حين أقول إنني أيضاً أقدّر احترام بن غوريون للقصيدة التي خجلت لمشهد عنف وانتفضت لمأساة حقد، وصرخت في وجه القتل- لماذا إذن لا نحقق الحلم للشعبين بدولتين؟ يئير: حينما رحلت لم تترك وراءك زوجة ولا أطفالاً- كما قلت- لكنك تركت قصائدك المعّذبة والجميلة، إنّ عليهم أن يقرأوا قصائدك:/ صانع السلام في أعاليه سيهبُنا السلام/ وهو الروح المحلقة فوق الهاوية"/ صوتك باهتاً يأتي لأنّ السماء بعيدة بعيدة، أتمنى أن يقترب حتى يصم آذاننا جميعاً وحتى يخرج بن غوريون من تراب القبر يوزع شهاداتك على الجنود.." (رسائل لم تصل بعد،١٩٩٤م)

إنّ الحميمية التي أبداها الكاتب تجاه شخصية بن غوريون نراها حالة من الاندفاع تجاه مخاطبة المقصودين في الخطاب، ونرى الكاتب غير نادم على ذاك الخطاب، حتى أنه لا يظهر مشاعر الخوف من أحد، علماً أنّ الزمان الذي كتبت فيه تلك الرسائل؛ لم يكن زمناً بسيطاً أو سهلاً، وإنما نجد كثيراً من المفكرين والمنظرين قد أخذوا نصيبهم من العذاب الجسدي والنفسي على أيدي رافضي تلك الطروحات، كما جسد ذلك صاحب رواية (الطريق إلى بيرزيت) وهي من روايات زمن الانتفاضة، فقد أبان فيها كيف تعرض الأستاذ الجامعي العامل بجامعة بيرزيت لحالات من الضرب والتعذيب على أيدي شباب الانتفاضة، لرفضهم أفكاره ومقترحاته الداعي فيها إلى الحوار بين المفكرين العرب واليهود، ولم يعترف صراحةً بدولة إسرائيل كما فعل صاحب الرسائل". (شحادة،١٩٨٨م)

لذا نجد الطروحات التي تقدّم بها الكاتب في رسائله تجاه فلسطين وشعبها هي أكثر خطورة وأعمق دلالة من الأفكار التي كان يطرحها بعض الداعين إلى الحوار بين العرب والإسرائيليين في مرحلة الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين، إلاّ أنّ صاحب الرسائل لم يلق تعنيفاً أو تعذيباً أو اضطهاداً إذا جاز التعبير من أية جهة كانت، في حين أنّ الداعين للحوار والتقارب بين الشعبين (العربي والإسرائيلي) قد نبذ بعضهم وضرب بعضهم الآخر وحورب شعبياً ووطنياً، وهذا يمثل تناقضاً في الموقف، من قبل الفاعلين في الحدث، وهذا لا يعني أنّ الباحث يدعو إلى استخدام وسائل التعذيب الجسدي ضدّ أصحاب الفكر والطروحات التنازلية تجاه قضية الشعب والوطن، وإنما يجب التعامل مع الحدث حسب فاعليته وأهدافه.

نتيجة لما تقدم، يستطيع الباحث القول إن موقف صاحب الرسائل لم يكن حالة اعتباطية، أو مشاعر عابرة، وإنما هي رؤية تستند إلى قناعات فكرية وثقافية، جسدها الكاتب عبر أسطره حتى يوصلها للمعنيين من العرب والغرب معاً، وإن كان يحاكي الغرب أكثر مما يحاكي أصحاب الحلول المعتدلة من العرب .إذا جازت التسمية .فما يصبو إليه من طروحات لا يتحقق إلاّ بالتوافق مع الغرب وفلسفاته الهادفة إلى خلق كيانات سياسية هزيلة، تكون تابعة غير متبوعة، فتكون أفكار الكاتب قد توحدت مع أفكار

وطروحات السياسيين الدافعين لمثل تلك الأفكار، والمدافعين عنها، حتى تتحقق طموحاتهم إن استطاعوا تحقيقها. لذا نجد عزّت يحمل "في ذاكرته ووجدانه تراثاً ضخماً يسيطر عليه، ولا يستطيع منه فكاكاً، وهذا يعني أنه يُبدع من خلال التراث والكمّ الهائل من المعلومات والثقافات التي حصلها وتشرّبها نفسه عبر قراءاته المتنوعة، ولكنه يعمد الى تجاوز هذا التراث مضيفاً عليه" (الخواجا ونمر، ٢٠٠٠) حتى ينهض بفكرته التي يدافع عنها، ويُفعّل قِيَمها في حياته.

الرسالة التي تحمل الرقم (٤) تشكل المعيارية الصادقة للكاتب في خلق علاقة وطيدة مع مماثليه من أصحاب الفلسفات والرؤى، وهي عنوان تتجسد فيه المثل المستقدمة من الغرب والطاردة للمثل المتأصلة في نفوس الناس وعقولهم، وإن كانت الموازنة بين الرسالة المعنية وغيرها من الرسائل المتعددة العائدة للكاتب، توضح الحالة المؤلمة والكاشفة عن الزيف المستتر خلفه الباحثون عن السلام، لأنّ الكاتب من حيث يدري أو لا يدري يعرّي الحقائق والمستور فيما يخص حياة الناس نتيجة للحروب التي شنتها الدولة التي يعترف الكاتب بوجودها، ويطالب الآخرين الاعتراف بها على أسس غربية محضة، وليس على أسس أنصاف الحلول أو أسس الباحثين عن العدالة، لذا نجد التناقض واضح المعالم والدلالات من خلال رسائله المتعددة.

الفرار إلى الهزيمة

فما أن انتهت المفردة الأخيرة من الرسالة الرابعة، حتى نراه يُدوّن آثار الانهزامات النفسية والروحية والفكرية معاً، على ذاتية الكاتب وشعبه المنتمي إليه "أفقتُ الليلة على حلم، إحساسي بالزمن نزف دائم وصمت ودوار، حاولت أن أجمع تفاصيل الحلم لكنني وجدت نفسي متشتتاً. اكتشفت أنني لم أحلم حلماً جديداً بل قصة انبثقت فجأة وقد مضى عليها ما يزيد على الاثنين والعشرين عاماً، حزيران (٦٧)، كنت في الرابعة عشرة، تحدّث الناس كثيراً عن الحرب، رأيتهم يتحلّقون حول البسطات وعتبة المسجد الكبير في قريتنا، كانوا يشتغلون، لم أكن أقدّر بالضبط ماذا تعني الحرب مساء التاسع من حزيران شعرت بأنّ الأمر كان جدّياً، مؤلما، حزيناً، كان أبي جالساً على فرشته وسط البيت، كانت تلك أول مرّة أجده غريباً/"ياما على الدنيا اشتغل/ وغّره طول الأمل/ والموت يأتي بغتةً/ والقبر صندوق العمل/".

الناس يهربون إلى الشرق وأنت هنا تقول القصيدة؟ صاحت أمي بانفعال، توقف بسرعة وفتح عينه... لاجئ فقير خرج عام (٤٨) مع الذين خرجوا وترك أمّه الفانية تموت تحت الدرج، قالوا إنها جدتي" رفضت الرحيل. ركع لها راجياً أن تركب الحمار، رفضت ، جاء القصف انتحرت تحت الرماد وغابت، بكى عليها سنوات عمره الباقية، كان وحيدها وكانت وحيدته، قال أبي عليكم أن ترحلوا إذن؟ فتحت أمي الخزانة، ناولته صرّة ملابسه، هبّ واقفاً بسرواله الأبيض حيث باحة البيت، تناول علبة الكاز وأشعل قداحته/ جمدنا جميعاً حتى أمي/ تركناه وحده ونحن نعلم أنه لن يخرج/ واتجهنا إلى الشرق، لم يطل بنا الخروج، رجعنا مساء اليوم الرابع وجدناه على حاله يشرب الشاي". (رسائل لم تصل بعد،١٩٩٤م).

عملية استذكار الحرب ومخلفاتها جاءت على شكل حلم مفزع ثقيل، قد انبثق من حالة حقيقية مجسدة في التاريخ جعلها قصّة انبثقت فجأة...) وكأنه يقول: ان تراكمات الزمن تجاه الحرب ومجرياتها، واستمرارية الحال وبقائه على ما هو عليه، جعل الحياة التي عاشها ويعيشها الناس قصّة تروى من الآخرين، دون النظر إن كانت تلك القصة مسلية في سردياتها أو مؤلمة، إلاّ أنها تجسدت على شاكل قصة تروى، بمعنى أنّ الناس يتألمون مع الواقع المعيش، وما الأحداث التي عصفت بهم من حرب (٤٨) وما سبقها وما لحقها من هزائم وحروب إلاّ قصة تروى، دون النظر لحيثيات القصة، ومنطلقاتها ودوافعها وأسسها وأهدافها، وصانعها، لأنه في تلك القصة كما يقول يسرد حالة الناس، بلغة سردية واضحة لا نجد فيها تفاعلاً أو حميمية، وإنما نجد الكاتب ينقّل لنا حركة الناس وانطباعاتهم من مُخيّلته، دون أن يخلق حالة من التفاعلية مع الحدث، أو أن يخلق صوراً فاعلة عبر أسطره ومفرداته الكاشفة، وكأنه يفرغ علبة في علبة أخرى، أو يقوم باستنساخ شريط يحفظ تلك المشاهد والحواريات على شريط آخر، مع نقل آني لتلك الأحداث عبر شاشة مرئية من الآخرين، وكأنه يقول للناس، هذا ما حدث فعلاً، ولا تبحثوا عن عواطفي وانفعالاتي وهمومي في مفرداتي الحافظة والناقلة لتلك المشاهد المتكررة في حياتنا.

لذا نراه يستنكر أو يسترجع من صور ومقتنيات آثار الحرب وتركاتها الثقيلة، لأنه يجد انطباعات الناس المتفاوتة والتحامها مع معطيات الحدث، وكيف أنّ الهموم التي تركها الحدث قد أسدلت على كاهل الناس الشيء الكثير، مما يرينا عملية الموازنة بين نتائج الحربين (٤٨-٦٧) وأثارهما على أفكار الناس وتصرفاتهم وثقافتهم، فيرينا بلغة سردية مدى التباين في مواقف الناس تجاه الرحيل القسري الثاني، حيث جلّ الناس تركوا بيوتهم خلاصاً من الموت كما يعتقدون، إلاّ أن بعضهم قد وقع في موت بطيء، وبالذات الذين هجروا بيوتهم بلا رجعة، وأصبحوا فيما بعد يحملون مسمى النازحين، أمّا الذين احتموا بالطبيعة ومقتنياتها ومن ثم تكشفت لهم

الحقيقة وعادوا إلى بيوتهم، بعد أن استردوا رشدهم المتهاوي، نجدهم أخذوا قسطاً أوفر من حميمية الحياة على الرغم من الصعوبات والهنات التي مرّوا ويمرون بها على مر الأيام.

هذا مشهد من مشاهد حراك الناس آنذاك، وأمّا المشهد الثاني من مشاهد الحراك نفسه، فقد تمثل في رفض شريحة صغيرة من المجتمع ترك منازلهم والهرب نحو المجهول، لذا لازموا بيوتهم وأصروا على موقفهم الرافض للرحيل مرة أخرى، وبالذات جيل الهجرة الأولى الذي قاسى ما قاساهُ من تبعات الهجرة، كما هو الحال مع والد الكاتب، وكأنه استرجع هو الآخر ما جرى ويجري مع أسرته والآخرين، علماً أنه فقد والدته الرافضة لإخلاء بيتها، علماً أنها ماتت تحت الأنقاض، بذلك تكون آثرت البقاء والشهادة فيما بعد على عيش أطول في سني عمرها في حياة ملؤها الحزن والحرمان والعذاب المتواصل. وإن أسدل الكاتب عليها سِمة الانتحار، وكأنه يريد منها الخروج مع الآخرين؛ حتى يتحقق المُراد في عيشٍ أطول في مخيمات الامتهان.

على الرغم من ذلك، يحاول الكاتب الانتصار لفكرة البقاء في الوطن من خلال إظهار روح المعاناة التي انتابت الراحلين واستعمرتهم فيما بعد، لذا نجد لغة الكاتب وقد تبدلت من سردية لا حميمية فيها عندما يتعلق الأمر برحيل الناس، إلى سردية فيها نوع من الحميمية عندما يقترب الأمر من الكاتب ويمسّه، فتصبح لغته غير اللغة المعهودة "كما في حواريته مع والده بعد أن أبلغ من قبل المحقق أنّ الأبعاد يشكل أحد الحلول بالنسبة له "أبي- أفهم الآن كم كانت علامات الرحيل مرعبة بالنسبة لك، قال لي المحقق "نحن الآن في الثالث من آذار ١٩٨٨) إنّ الأبعاد عقوبة قاسية لكنها معقولة، قال ذلك دون اكتراث، وربما أراد أن يقيس مدى انفعالي أو خوفي من الفكرة، أبي: هل تذكر يوم قررت أن أقطع النهر حاملاً معي الطفلة الصغيرة إلى والدتها؟ يا لحسرتي البالغة، إنني عند عودتي، لم أتمكن أن أنقل إليك كل إحساسي بالرحلة، ربما كان ذلك قصوراً أنني حين ذاك أو أنه كان قصوراً في التواصل بيننا، وحين أصبحنا أصدقاء... كانت قصتي قد ماتت ولم يعد لها أثر لكنّ قصتي تعود من الموت، تنفتح كالريح وأنت لا تعود، حين تركت بنا الشاحنة وجلس كلّ على صرته لم يطل الصياح واللغط، فقد اطمأنّ كل إلى أغراضه...، كانت سهول طوباس تنتحب .هكذا تخيلتها، لم يغرق فيها على اتساعها محراث واحد يزيل التجاعيد المنقوشة رغم أنها لم تَخْلُ من بقاع خضراء. وهكذا توقفت الشاحنة أمام النهر، نزلت والطفلة نائمة بين ذراعي، فتحت عيونها على وجه أمها ينطق بفرحة لقاء حبيسة، مفاجئة بدت مستحيلة، وصلت الأمانة لكنني وقعت في الشرك، لم أذق طعم الفرح على مدى ثلاثة شهور، مضيتها على الضفة الأخرى للنهر، كان كل شيء غريباً بالنسبة لي، فأين هدوء الروح الذي بدأ يخزّ كالشوكة ويطفح بالحنين؟ لكنني عدت أخيراً ماشياً على أقدامي كلّ المسافة حتى مشارف نابلس، كانت تلك المرة الأولى التي أتعلم فيها ماذا تعني العودة ويومها أيضاً أدركت لماذا حرقت ملابسك أمام تهديد الرحيل". (رسائل لم تصل بعد،١٩٩٤م).

إنّ الكاتب قد فعّل لغته وجعلها استقطابية أكثر عندما يتعلق الأمر بذاتيته وأما قبل ذلك فقد جعلها وصفية سردية لا روح فيها إذا جاز التعبير.

وكأنه يقول: إنّ من ذاق مرارة الرحيل يستطيع أن يصنع نسيجاً أدبياً يتلاءم مع روحيته، وأما من لم يجربه تبقى لغته سردية ووصفية لا حراك ولا حياة فيها، فهي لا تحمل إلاّ الصور الإخبارية غير الاستقطابية، فكأنه يشبه المذيع الناقل للأخبار، دون أن تترك الأخبار ملمحاً مؤثراً على محيّا المذيع، وكأن الحدث لا يعنيه.

وبما أنّ الكاتب قد ذاق مرارة الرحيل والبعاد لمدة ثلاثة شهور، استطاع أن يُفعّل ذلك الحدث في لغته الكاشفة لنوازعه وهمومه، فلماذا لم يستطع أن يجعل فكره متأثراً أيضاً، فإذا كان بعاده عن قريته ثلاثة شهور قد خلق انطباعاً مؤلماً لديه، فكيف تكون مشاعر وهموم وأفكار وقيم من مضى على رحيله القسري ثلاثة عقود أو أربعة أو أكثر من ذلك بقليل أو كثير، فهل من السهل على مثل ذلك الإنسان أن يتناسى أو ينسى ما حلّ به وشعبه من هموم ومصائب، لذا ليس من حق أحد أن يضع حلولاً أو تصورات تنتقص من حقوق الآخرين السياسية والنفسية والفكرية والثقافية، لأنّ ذلك يشكل خرقاً وانتهاكاً صارخين وصريحين تجاه قضية الآخرين، وكذلك يرينا الكاتب مدى الحالة التهالكية التي يصل إليها الإنسان الواضع للأفكار والحلول الماسخة لحقوق الآخرين، ومثل ذلك يشكل تناقضاً واضح المعالم والدلالات تجاه الكاتب وأفكاره، فكأنه يقول: على الرغم من المآسي التي مرّ بها أبناء شعبنا إلاّ أنني أضع الحلول أو التصورات لخلق الحالة التصالحية بين المعتدي والمعتدى عليه، لأنّ مثل ذاك التناقض تؤكده النصوص المتلاحقة والمتداخلة في مجموعة من رسائله، التي تفيحُ من ثناياها القيمة الإنسانية للحدث المتلازم والمتواصل في النماء، وأعني بذلك حدث الهجرة القسرية التي فرضت على كثير من أبناء الشعب الفلسطيني، ومن ثم يصور الكاتب مراحل المعاناة التي أصابت النفس البشرية وهي تتصارع من أجل البقاء في مخيمات اللجوء والامتهان فكما يقول: "في الزنزانة حتى الأحلام أحياناً تموت لتحيا مرة أخرى، لم أرد أن استغرق في الذكريات العاصفة لأيام ما وراء النهر، إلاّ أنني رغماً عنّي وقفت أمام صف طويل من الأطفال والنساء أمام خيمة كبيرة-

كانت بيدي صفيحة بلاستيكية، يدي تهتز بالخجل، بالغضب وبالخوف، أخيراً جاء دوري سلمني الرجل رغيفاً ووضع في الصفيحة كَفْكيراً من طبيخ الفاصولياء. (رسائل لم تصل بعد،١٩٩٤م)،

إنّ تداعيات المآسي المتلاحقة لم تثن الكاتب عن استمرارية في توكيد يقينه من أنّ الحلم بدولتين قائم لا محالة، فمهما أفرد من أسطر وخضبها بعبارات متعددة الألوان والأذواق، إلاّ أنه يبقى يتعامل مع لون واحد يؤكده ألا وهو الدولة المجتزأة على أرض مجتزأة، دون النظر للألوان والأطياف الأخرى، التي يصفها أو يُجلّيها كي تتضح صورها كما يريدها أن تتضح لا كما يجب أن تكون، فعلى الرغم من معاناته الفردية داخل جدران زنزانة التوقيف، ووصفه لمعاناة الآخرين إلاّ أنه يؤكد على أحقية دولة إسرائيل في العيش والبقاء، كما يتجلى ذلك عبر مفرداته وصوره وهو يحاور المحقق الإسرائيلي هذه المرة وليس الشاعر (يئير) الذي تنادي قصائده بسلامهم لا بسلام الباحثين عن السلام، كما يقول: "أيها النهر ما أقساك/ لم أقطعك منتصراً ولا مهزوماً/ لكنني حين تركتك ورائي شعرت برغبة جامحة في البكاء- إنك لم تعطني الشعور أنك تجري بكبرياء، تخيلتك ميتاً جافاً تنتحر مع كل خطوة تخطوها نحو البحر الميت، كيف أستطيع إذن أن اهتدي إلى ممر الخروج نحو الحلم بالقصيدة وأمامي هذه المتاهة الجامحة؟ قال لي المحقق: أنتم تريدون دولة مستقلة، فأين نذهب نحن؟ قلت: نحن لا نريد دولتنا على حسابكم. هذا تزوير للحقائق وأنت تعلم ذلك/. قال: لم تقِيموا دولتكم منذ عام (٤٨)، ألم تكن الضفة الغربية وغزة بين أيديكم؟ قلت كانت خسارتنا هائلة دائمة. نحن نتكلم عن الآن، عن المستقبل، حين عدت إلى الزنزانة ندمت لأنني تكلمت عن الخسارة الهائلة رغم أنها حقيقية، كنت أدرك كم حاجاتنا كبيرة لكتابة التاريخ من جديد- بحاجة إلى مقياس لتراكمات سنوات القهر والتشريد والأيدي الحزينة ترتعش بصحاف الطبيخ وأرغفة الخبز.(رسائل لم تصل بعد،١٩٩٤م).

مثل تلك الأسطر التي سودّها الكاتب مُحاوراً سجّانه تُنبِي عن أفكار هدّامة إذا أجاز التعبير، لأنّ أفكار الكاتب لم تأت مصادفة، وإنما مخطط لها أن تكون وتظهر في الحياة، على شاكلتها التي يحاكي من خلالها الآخرين (العدو . الصديق)، لأن طبيعة الخطاب الصادر عن الكاتب يراد له أن يفعّل في الحياة، ويتفاعل معه صانعو الحدث، فمهما عبّر الكاتب عن الخسارة التي لحقت بالفلسطينيين لأنهم لم يقيموا دولتهم على تراب الأرض المتبقية من فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨، ومهما ندم وأظهر الندامة على ذلك الحدث، وأكد على أهمية كتابة التاريخ من جديد، كل ذلك لا يساوي بعضاً من خسارة خسرناها ولم نزل نخسرها نتيجة لطروحات الكاتب وأقرانه من الأدباء والمفكرين والسياسيين الذين يؤكدون على شرعية وجود دولة إسرائيل في الحياة، متناسين حقوق أبناء بلدهم وأشقائهم وجيرانهم أصحاب الأرض الشرعيين، إن كان أصحاب تلك الطروحات يقدرون ويُثمّنون ماهية الإنسان وقيمة الأرض والوطن والمواطنة وغير ذلك من المسميات التي تحتاج إلى تحديد مصطلحاتها ومفاهيمها حتى لا يصل الأمر إلى ما وصل إليه عند الكاتب وغيره.

هذا جانب من جوانب الحقيقة المتعددة والمتداخلة معاً، أمّا الجانب الثاني فنراه ما تمثّل على لسان المحقق الإسرائيلي عندما قال:- (لماذا لا تقيمون دولتكم منذ عام (٤٨) ألم تكن الضفة الغربية وغزة بين أيديكم) مثل ذلك الكلام نراه حقاً لكن يراد به باطلاً، بمعنى نجد المحقق كمن يحقن السم بالدسم، فيجد باحثين متعددين يُدافعون عنه، لذا نجد الكاتب وقد استجاب فكراً وعاطفة للمحقق، ودوّن أسطره في أعلاه، وكأن الكاتب لم يكن يعلم أنّ طموح الشعب الفلسطيني والعربي لم يكن متمثلاً في قيام دولة على الأرض المتبقية من فلسطين (الضفة الغربية+ غزة)، وإنما يتمثل الطموح في تحرير الأرض الفلسطينية كاملة وعودة اللاجئين لديارهم، وغير ذلك من الأمور المبحوث عنها من قبل أصحاب الحق، زيادة على ذلك أنّ قيام منظمة التحرير لم يتمثل فيما يصبو إليه الكاتب، وكذلك عندما تسلمت المنظمات الفلسطينية المسلحة زمام المبادرة وأصبحت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية السياسية والعسكرية بيدها، لم تتنازل . ولو نظرياً . عن حق التحرير والعودة، والأدبيات للمنظمات الفلسطينية كافة تؤكد ذلك، ونصوص الميثاق الوطني الفلسطيني تؤكد أحقيّة التحرير والعودة، وعندما أصبحت منظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً شرعياً ووحيداً للشعب الفلسطيني عام ١٩٧٤م، بعد إعلان قمة الرباط العربية، لم تتنازل منظمة التحرير عن أهدافها، وقبل هذا وذاك تناسى المحقق الإسرائيلي قرار التقسيم الصادر عام (١٩٤٧م) حيث يؤكد على قيام دولتين متجاورتين للعرب واليهود على حد سواء، ولم يزل هذا القرار قائماً لأنّ الشرعية الدولية لم تُلغِه، في حين نجد الكاتب وقد استجاب لأسئلة المحقق وجعله يتناسى تلك الأدبيات التي تربت عليها الأجيال الفلسطينية والعربية والمتمثلة في حق قيام الدولة والدعوة لكتابة التاريخ من جديد.

ما تقدم يجعلنا نوقن أنّ مثل تلك الأفكار تشكل حالة انهزامية لا ثبات فيها، ونردف قائلين، لو أنّ العرب والمسلمين أقرّوا جدلاً بأحقية إسرائيل في الوجود والحياة على أرض مغتصبة، وطالبوا بقيام دولة فلسطينية على الأرض المتبقية من فلسطين، فهل سيتحقق الحلم الذي يدعو له الكاتب ويريد إعادة كتابة التاريخ حتى يحققه؟ أم أن القوى الدولية سترفض وتوقع القابلين لأفكاره في مهاوي الردى، وتكون إسرائيل هي الرابحة في المنطلقات كلها، ومثل ذلك لا يحتاج إلى أدلة وبراهين، لأنّ اتفاقيات أوسلو وما تبعها من

بروتوكولات تؤكد على أحقية الشعب الفلسطيني في قيام دولته على أرضه المحتلة عام (١٩٦٧) بما فيها القدس الشرقية في مدّة أقصاها خمسة أعوام من توقيع الاتفاقيات، إلاّ أنّ الزمن أثبت بطلان ما وافق عليه الإسرائيليون أنفسهم، وها نحن نبتعد عن الزمن المحدد لقيام الدولة أعواماً متعددة، وقد يطول الزمن أكثر من ذلك بكثير، وذلك لأسباب متعددة لا نستطيع تفصيلها على صفحات هذه الدراسة، وهذا دَيدنُ إسرائيل وأمريكا في رفضهما للقوانين الدولية؛ حيث رفضت إسرائيل عشرات القرارات الدولية فيما يخصّ قضية فلسطين والصراع العربي . الصهيوني. (الأمم المتحدة،١٩٩٤م)، علماً أنّ الولايات المتحدة وإسرائيل قد جعلتا أرض الضفة الغربية وقطاع غزة أرضاً متنازعاً عليها وليست أرضاً محتلة كما هو مؤكد من خلال مجريات الأحداث والمواثيق والقوانين الدولية، ولو فرضنا جدلاً أنّ ما يصبو إليه الكاتب صحيح في قالبه ومعناه، فلماذا أقدمت السلطات الإسرائيلية على سجنه وسجن الآخرين من أبناء الشعب العربي الفلسطيني، علماً أنّ الانتفاضة المندلعة عام ١٩٨٧م، ما هي إلاّ مظهر من مظاهر العصيان المدني الرافض للاحتلال، ولم يستخدم الفلسطينيون سلاحاً غير الحجر، إلاّ أنّ إسرائيل سجنت الآلاف من أبناء الشعب وأبعدت المئات منهم، ولم تزل تعتقل أكثر من عشرة آلاف معتقل، وإن كانت المواثيق الموقعة بين الفلسطينيين والإسرائيليين تنصّ صراحة على إطلاق سراح الأسرى الفلسطينيين على الرغم من اختلاف طروحاتهم وقناعاتهم، لذا من حق الباحث أن يتساءل هنا ويقول: أمثل تلك الأفكار التي يدعو إليها الكاتب ويدافع عنها ستغير من قناعات المعتدين؟ أم أنهم سيصّرون على مواقفهم ويزحفون نحو المتبقي ليقلبوا الحقيقة إلى قضية مهما كانت الأهداف والنوايا للباحثين عن دولة وحلم مجتزأين.

والذي يتعمق في قراءة الرسائل، يجد الكاتب يبحث عن انتفاضة بيضاء غير مسلّحة على الرغم من اعتقاله في زنازين العدو، وهذا يتمثل فيما نقله على لسان الصحيفة الإسرائيلية "يديعوت أحرونوت" التي أوردت النبأ قائلة: "مخرّب من غزة يقتل طبيباً بشارع "يركون" بتل أبيب، احتفظت بتقرير اليديعوت، وصورتي مجللة بالأحمر ولكن هذا ما حدث". (رسائل لم تصل بعد،١٩٩٤م).

إنّ الدعوة إلى عدم عسكرة الانتفاضة لم تلغ دور بعض الرافضين لذلك، كذلك لم تردع الجيش الإسرائيلي كي لا يستخدم وسائله المتعددة في تعذيب الناس، إن كان التعذيب فردياً أم جماعياً، للخلاص من الانتفاضة وتبعاتها، وتمثل ذلك بأساليب متعددة، وقد شخص الكاتب بعض تلك الأساليب في رسائله: فنجد الحبس الفردي والعزل والضرب والتنقل بين السجون، وآثار ذلك على نفسية المعتقل وأفكاره.

تجاهل الحقيقة

على الرغم من تعدد صور العذاب التي جسّدها الكاتب من خلال مفرداته، إلاّ أنه يجّسد فكرته الداعي لها، وهي أنّ أرض فلسطين المطموح فيها هي الضفة الغربية وغزة، لذا لا نجد ذِكراً لمسمىً يدلل على معلم تاريخي أو ديني أو جغرافي أو حضري للأرض الفلسطينية المحتلة عام ١٩٤٨م، إلاّ مرتين حيث وردت لفظة الجليل والناصرة في حالة عرضية لا نظنّها مقصودة، وقد تجّسد ذلك في الرسالتين رقم (٧+٢١) حيث قال "سأخرج أنا إليك، وهو جزء من عالمي كلّ يوم! والمكان لو شئت أعلى ارتفاع لشارع نابلس القدس، وهو لو شئت الجليل... هل ستحدّق كما فعل محمود درويش بمأساتنا من هناك". (رسائل لم تصل لم،١٩٩٤م).

مثل ذلك نراه مقصوداً ونعني عدم ذكر المسميات للشواهد والدلالات الفلسطينية، علماً أنّ العرب الفلسطينيين في المدن الفلسطينية المتعددة، قد استجابوا وتجابوا مع الحدث، ودعموا صمود إخوانهم في الضفة الغربية وغزة، وتمثل ذلك بالمساعدات العينية والسياسية والثقافية والفكرية، والتجمعات والاضطرابات وغير ذلك، زِدْ على ذلك من يقرأ رسائل الكاتب لا يعرف بلدته أو قريته التي هجّر أهله منها، علماً أنها دمّرت كما دمّرت مئات البلدات الفلسطينية على أيدي الحركة الصهيونية كي تطمس معالم الجريمة إن يستطيع أحد طمسها.

لذا نقول إنّ المعالم والشواخص والمدن الفلسطينية باقية بدلالتها وإرثها العميق إن ذكرها الكاتب في رسائله أو لم يذكرها، وإن وجدناه يكثر من ذكر محمود درويش وراشد حسين وغيرهما من المبدعين العرب الفلسطينيين، علماً أنّ قرية البروة التي ينتمي لها محمود درويش قد دمّرت وراشد حسين قد اختار المنفى وحرق مع شقته في نيويورك، وكلا الشاعرين مع غيرهما من الشعراء الفلسطينيين لم يحملا بندقية أو حجراً في يوم من الأيام.(الديك،٢٠٠٣م).

جماليات النص

على الرغم من التضادية والتعارض في فكرة الكاتب وطروحاته، والتناقضات المشخصة والمتمثلة في طرح أفكاره وما يعارضها من قيم وثوابت واضحة للعيان، إلاّ أنا نجد رسائل الكاتب مليئة بالشفافية والحميمية عندما يتعلق الأمر بالسجن أو الأبعاد

والتنقلات بين السجون، وحالات التعذيب التي تنتاب المسجونين؛ لذا كانت لغته مفعمة بالجمال أحياناً، مكثفة تحمل دلالات متعددة أحياناً آخر، ونجدها كذلك سردية باهتة وصفية لا روح ولا حراك فيها، حيث أنه لا يتدخل في خلق حالة من الاستقطابية كي يحتضن القارئ، ومثل ذلك أعني الحالة السردية نجدها قليلة جداً إذا ما قيست الأمور إلى مثيلاتها كما يقول "كل الأيام التي نقضيها بعد الاعتراف وهي أيام أصعب من التحقيق، ... فيها الخوف والقلق و انتظار المحامي، وتأجيل المحكمة... والتلهف على الزيارة وفي السجن نتحول إلى آلات مهملة...". (رسائل لم تصل بعد،١٩٩٤م).

وأما صوره الفاعلة وتشخيصه الاستقطابي فنجده في مواضع متعددة من الرسائل، وكثيرة هي علامات التفاعل مع النص "جباليا المخيم يتكوم على نفسه ساعة غروب الشمس كأنه تَنّورٌ يغلي والدنيا حزيران، وشوارع المخيم تنفتح تحت الأقدام كأنها دمامل متقيحة تهتاج فجأة، والناس في الشوارع يكادون يتخلون عن ملامح وجههم المعهودة، رأيتهم كما في الأفلام يمّرون بسرعة البرق وتختفي ملامحهم فجأة". (رسائل لم تصل بعد،١٩٩٤م).

وكما يقول بلغة تحمل في ثناياها مداليلِ وأفكاراً لها مالها وعليها ما عليها "ماذا نقول لهذا الجيل الذي يصحو على شعار إزالة الاحتلال وبناء الدولة؟ لا بدّ أن يفهم أنّ هناك دولتين للشعبين، عليك أن تغرس فيه القيم الإنسانية حتى لا يتحول الوحش داخله إلى الطبيعة، أن يفهم أن هذه الأقبية والسجون بإمكاننا أن نحولها إلى مدارس، وعلينا أن نخاف الدم إذا استثار... اكتبوا بكل الألوان واتركوا الأحمر يقتل ذاته... نُعيد بناء "إسماعيل" من جديد، ولا بأس أن حمل في جيوبه نسخة من كتب كنفاني وأخرى من القرآن وثالثة من السياسة فن الممكن... تكفي الولادة المشوّهة لمرة واحدة... تكفي؟". (رسائل لم تصل بعد،١٩٩٤م).

إنّ التعامل مع تلك اللغة المعبأة فكرياً ليس سهلاً، لذا لا نريد الاستفاضة في التعامل مع هذه الفكرة كما في السابق، وإنما نكتفي ونقول: "قد نرضى ولا يرضون" وأمّا "إسماعيل" الوارد ذكره في النص أعلاه، فقد يهدف رواية إسماعيل للكاتب أحمد حرب التي ظهرت في عقد الثمانينات من القرن العشرين، وهي تعالج بعض الهم الفلسطيني من وجهة نظر لا تبتعد كثيراً عن الطرح الليبرالي. ومن يتمعّن في رواية الجانب الآخر لأرض المعاد؛ يستطع أن يرى بعض ملامح أوسلو وتبعاته، لكن دون نصّية؛ وإنما حالة استقطابية مقصودة. (حرب، ١٩٩٠م).

أمّا ما يجعل هذه الرسائل تمتاز في لغتها وتفعيلها في الحياة، هو كثرة التضمينات الواردة فيها، وهذا يدلل على ما يدلل عليه العمق في الأداء الثقافي والاسترسال في القراءة والتعامل مع نتاجات الشعوب الأخرى إن كانت فكرية أم ثقافية أم أدبية أو كل ما ذكر مجتمعاً، بمعنى نقول أنّ صاحب الرسائل يتمتع بثقافة متعددة المشارب وهو على وعي فيما يقول ومع من يتعامل من الرموز والدلالات الرمزية، أي أن كلّ مفردة في الرسائل قد تحمل دلالات معينة مقصودة في حد ذاتها، لأن ما يقوم به من خلق حالة من العلاقة مع النصوص الشعرية وهو في زنزانته ما هو إلاّ تعويض لما يحرم منه من أشياء كما نعتقد، فتعددية النصوص الشعرية تجعلنا نحسّه مواسياً لنفسه من خلال محاورة أصحاب تلك النصوص واستذكارها، وهو كثيراً ما يحاور الشعراء وقليلاً ما يذكر الروائيين، علماً أن الكاتب روائي وليس شاعراً، ويعود ذلك لسهولة حفظ الشعر دون النص النثري، حيث يجعل الشعراء محورية التلاقي مع أفكاره دون النظر للجنس والعرق والوعي الثقافي للشاعر المخاطب، ومثل ذلك تعويض لما تفقده حواسّه من أشياء نتيجة العزل في الزنزانة وأيام السجن الأخرى، وكأنه يذكرنا بالشاعر البردوني عندما يكثر من ذكر المدن والأماكن ومقتنيات الطبيعة في وطنه اليمن، تعويضاً عن حاسّة البصر التي حُرم منها. (الديك،١٩٩٨م).

إنّ من يقرأ بعض نتاجات الأسماء الوارد ذكرها في الرسائل يجد أصحابها ينتهلون من منابع مختلفة كما هو الحال مع لوركا وناظم حكمت، ويئير الشاعر الإسرائيلي من أصحاب الإبداع الفني والأدبي والفكري. (رسائل لم تصل بعد،١٩٩٤م).

"إنك حين كنت في سجنك كتبت لشعبك وزوجتك منّور وبعض أصدقائك، لم تكن بك حاجة للكتابة إلى الدكتاتور الكامن في شرايين الحكام، أمّا نحن فعلينا أن نكتب لشعبنا وزوجاتنا وأطفالنا وأصدقائنا ولشعب آخر يعيش معنا، لذلك فإنّ غناءنا مقّدر عليه أن يحمل لغتين في آن واحد وإلاّ فإننا سنفتقد بيتنا إلى الأبد. هل تدري: لقد وافقنا على اقتسام البيت مع الشعب اليهودي وعلينا أن نتأكد أنّ أحداً لا يريد أن يستأثر بكل البيت ليرمي الآخر في العراء، عزيزنا ناظم: سنفهم بقلوبنا وعقولنا وصيتك للرفاق: يا رفاقي: إن مت قبل يوم الخلاص/ وهذا ما يبدو/ فادفنوني بمقبرة في إحدى قرى الأناضول/ وإذا أمكن/ فإن غرسة واحدة فوق رأسي سوف تكفي/ ولا حاجة للشاهد والحجارة على قبري/ لكنك عشت بعيداً ومت بعيداً وبقيت الوصية عالقة بينها وبين التحقيق مسافة سيبيريا والأناضول. قد حسم الأمر بالنسبة لك أما بالنسبة لنا فلا بدّ من وجود شاهد ولا بدّ من وجود حجارة على القبر"(رسائل لم تصل بعد،١٩٩٤م). لذا نقول: إن عزت وشخصياته التي يُحاورها من الهود نراهم "مشدودين نحو مكانٍ واحد، يتطلعون إليه، مسلّحين بالأسطورة والخرافة حيناً، وبإمكانيات الواقع أحياناً، إلاّ أنّ المستقبل نحو ذلك المكان محفوف دوماً بالمخاطر؛ فهو يقود أشخاصاً الى

السجون والزنازين، وآخرين الى المنفى، وآخرين نحو الموت" (مطر،١٩٩٩م)، كما هو الحال مع عزّت وغيره من العرب المختلفين في التوجهات والباحثين عن المكان في روحيّته وقيمه.

إنّ عملية الاسترجاع وخلق الحوارات تراد بها أمور متعددة، منها نفسية ومنها فكرية وخلق حالة التماثل بين الأشخاص، وكأنه يقول: ما العذاب الذي ذاقه ناظم حكمت وأمثاله إلاّ نتيجة لمواقفهم الرافضة للذل والعبودية للسلطة الغاشمة، وكأنّ هناك عاملاً مشتركاً بين الكاتب وناظم حكمت، فكلاهما له قيمه وأفكاره اللتان ينطلق منهما "إلاّ أننا نجد بَوْناً شاسعاً بين موقف الاثنين معاً (ناظم حكمت . وصاحب الرسائل)، لأنّ ناظم غَنّى لوطنه وشعبه في الأناضول، بينما يريد الكاتب أن يغني لشعبه وجلاديه من أجل الحفاظ على بيته كما يدّعي، "لذلك فإن غناءنا مقدر عليه أن يحمل لغتين في آن واحد وإلاّ فإننا سنفتقد بيتنا إلى الأبد"، ومثل ذلك ليس إلاّ ذريعة كي يبرر أفكاره التي يدافع عنها ويروج لها، علماً أنّ الكاتب يؤكد أهمية الكلمة وأثرها في الحياة، لكنه لو استنطق الكاتب (ركيزته أو معبره لإيصال أفكاره للآخرين) الشاعر ناظم حكمت وأطلعه على رسائله وما تحمله من مغالطات وتداعيات الفن الممكن، فهل يوافقه على ما ذهب إليه، من أن يتنازل أديبٌ وكاتبٌ عن ٧٨% من أرضه التاريخية لعدوٍ لم يزَلْ يطمح في المزيد؛ عِلماً أن ناظم حكمت لم يتنازل للدكتاتورية في بلاده، وبقي صاحب كلمة شريفة يقتدي بها جلّ المبدعين بما فيهم أصحاب الفن الممكن، فإذا بقي ناظم حكمت على موقفه تجاه الدكتاتورية، فهل سيتنازل عن جلّ وطنه للمحتلين لو كان التراب التركي محتلاً كما هو الوطن الفلسطيني، وكما فعل الكاتب عندما أقر بعملية التنازل المبحوث عنها قبل إقرار السياسيين بذلك.

زيادة على ما سبق، من حق الباحث أن يتساءل ويقول: ما العلاقة التي تربط الكاتب بناظم حكمت، أهي الأفكار أم الإبداع والفن، أم التشابه في الظروف؟ فنجيب أن أفكار ناظم حكمت يسارية وأفكار الكاتب استسلامية تجاملية بحته، وناظم حكمت ينتمي لحزب اشتراكي، بينما الكاتب ينتمي لحركة تحرير وطني، وإن كان الحزب الشيوعي الذي يؤمن ناظم حكمت بأفكاره أول المعترفين بدولة إسرائيل، إلاّ أنّ ناظم حكمت لم يعترف لجلاديه وسجانيه، فكيف يعترف الكاتب بدولة إسرائيل ولم تزل حركته ترفض هذا الاعتراف، علماً أنّ السياسيين أصحاب الفن الممكن قد ظهر اعترافهم بعد اعتراف الكاتب بسنوات عدّة، أمّا التشابه في الإبداع، فنرى ناظم حكمت يؤثر في الآخرين فكراً وإبداعاً، بينما الكاتب لا يؤثر في أحد من المبدعين من بعده، خاصة فيما يطرح من أفكار وقيم مؤلمة جارحة، وغير ذلك من أوصاف قد تليق بأفكاره.

فمهما ضَمّن الشاعر رسائله من نصوص وأفكار تنسب لمبدعين وطنيين وعالميين ينتمون لأصقاع مختلفة من العالم، كل ذلك لم يجعل من نصه قدوة لنصوص الآخرين، وإن كانت تعجّ بأشياء كثيرة، وبلغة مليئة بالحيوية والجمال في مواضع كثيرة من الرسائل التي فعلّ من خلالها كثيراً من الأشياء التي يؤمن بها، وأيضاً نجده يهمل بعض الأشياء التي قد تحتسب على فطنته وذكائه، فما حدث له مع عصافير السجن كما يسمونهم لم يُفعّله وإنما جعله حالة عابرة، علماً أنّه لم يرضخ لاستفزازات المحقق الإسرائيلي طيلة سبعة وعشرين يوماً "هنا نحن إخوتك عليك أن تحكي لنا كي نقوم باللازم... لا بدّ من كتابة تقرير للقيادة... هذا التقرير يقرؤه شخص واحد فقط هو الأخ ياسر عرفات، ونحن نعرف كيف نعتني بأهلك خلال فترة السجن" وبعد أن كتبت التقرير أعادوني إلى الزنزانة لأراه أمامي، أنا الذي راودت جدران الزنزانة سبعة وعشرين يوماً لم تسمع صوتي". (رسائل لم تصل بعد،١٩٩٤م).

عملية التحقيق والسجن الانفرادي لم تجد شيئاً، في حين استطاع المأجورون أن يغرّروا فيه ويوقعوه، وهذا يدلّل على تعدد أساليب انتزاع المعلومات والدهاء والمكر من العدو في تعامله مع المعتقلين، وكيفية اختراق السجون من العملاء، فلا الثقافة ولا الوعي السياسي ولا المستوى التعليمي للكاتب قد نفعته وحمته من العملاء، لذا نجده يمّر على هذا الحدث مروراً لا ينّم عن شيء، وإن كان بإمكانه أن يفعله كما فعّل كثيراً من المشاهد والمواقف، حتى يتعظ منه الآخرون، إن وجد من يتعظ. فعلى الرغم من السلبيات والهنّات والأفخاخ التي تزاحمت في نصوص رسائل لم تصل بعد، إلاّ أنها تحمل وجهة نظر قد لا نتفق معها، قد عززها الكاتب بلغة مفعمة بالجمال، وثقافة عالية المستوى، وإن تنوعت لغته، فلم تسر في وتيرة واحدة، وإنما نجدها على وفق أنماط متعددة، زيادة على ما تحمله من هموم وآهات يحاول الكاتب كشف المستور عنها، وإظهار حالات العذاب والاضطهاد التي يلقاها السجين من سجّانه، وكيفية خلق العلاقة بين السجن والسجّان والمسجون.

الخاتمة

رسائل لم تصل بعد،من الكتب التي تثير جدلا لدى المتلقي،دون النظر لطبيعة فكره،لذا ترجمت إلى أكثر من لغة غربية،لما يتمتع به الكاتب من علاقات حميمية مع كثير من الشخصيات الغربية،التي لها مساس بالحراك السياسي في الشرق الأوسط وبالذات الصراع العربي الصهيوني فيما يخص قضية فلسطين،فالكتاب يقر بأحقية العدو في البقاء والعيش بأمان في حدود دولته التي أقامها على أنقاض شعب مضطهد مشرد،في حين جعل العدو ومناصروه الأرض المتبقية من فلسطين أرضا متنازعا عليها،ما جعل الكاتب

يتفاعل مع منطلقاته الهدامة بلغة حميمية صافية أحيانا، شاعرية أحيانا آخر، تميل إلى السردية في بعض المواقف،يكثر فيها الحواريات مع رموز وطنية وعالمية يشار لها بالبنان لمواقفها وقيمها وثقافاتها،لذا أكثر من حالات التناص التي جعلت الكتاب أكثر قربا من النفس،على الرغم مما يحمل من حالات هدّامة،وقيم بعيدة عن القيم والأخلاق والثوابت التي تنادي بها الأمم في خطابها الإنساني.

المراجع:

١. التلمساني، ح، (١٩٨٨) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، مج١، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ص٢٤٠-٢٤١).
٢. حرب، أ،(١٩٩٠) الجانب الآخر لأرض المعاد، منشورات جامعة بير زيت، ط١، (صفحات متعددة من الرواية نفسها).
٣. الخواجا، ع، نمر، م،(٢٠٠٣) تقنيات السرد الروائي في الحواف، مجلة الكلمة، مجلة اتحاد الكتاب الفلسطينيين، العدد١١، (٣٥-٣٦).
٤. الديك، ن، (٢٠٠٣)جراحات حيفا عذابات الكرمل: الشكل والمضمون في شعر محمود درويش (١٩٦٠. ١٩٧١)، مؤسسة الأسوار، عكا، ط١، (١٣ وما بعدها).
٥. الديك، ن،(١٩٩٨) اللغة الشعرية عند عبد الله البردوني، مجلة المعلم الطالب، مجلة تربوية محكمة، يصدرها معهد التربية التابع للأونروا، اليونسكو، دائرة التربية والتعليم، العدد٢، عمّان، الأردن، (صفحات متعددة من البحث).
٦. شحادة، أ، (١٩٨٨) الطريق إلى بيرزيت، مطابع النهضة في الناصرة، المكتبة الحديثة، الناصرة، ط١،(صفحات متعددة من الرواية نفسها).
٧. الغزاوي، ع،(١٩٩٤) رسائل لم تصل بعد، اتحاد الكُتّاب الفلسطينيين، القدس، مطبعة دار الكتاب، ط٢، (١١،١٢،١٣،١٨،٢٤، ٢٧،٢٩، ٣١،٣٢، ٣٣،٣٤. ٣٥، ٣٦، ٣٧،٣٩، ١٢٧، ١١٠، ٤٠، ١٢٢، ١٠٩، ٩٠، ١٢٨،صفحات متعددة،٤٩، ٥٠، ٩٣).
٨. الغزاوي، ع، (١٩٩٨)عبدالله التلالي، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط١، ودار الفاروق، نابلس، ١٩٩٨.(صفحات متعددة من الرواية).
٩. الفلسطينيين، د،(٢٠٠١) منشورات اتحاد الكتاب الفلسطينيين، مطبعة أبو غوش البيرة، فلسطين، ط١، (١٣٤،١٣٥).
١٠. المتحدة، ق، (١٩٩٤) بشأن فلسطين والصراع العربي الإسرائيلي، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، لبنان، (الكتاب جميعه).
١١. المشايخ، م، (٢٠٠٣) هاجس الكتابة ومسؤولية الكلمة في رواية عبدالله التلالي، مجلة الكلمة، مجلة اتحاد الكتاب الفلسطينيين، العدد١١، (٩١).
١٢. مطر، أ، (١٩٩٩) قراءة نقدية في أعمال عزت الغزاوي الروائية، مجلة إضاءات، العدد (٦)، (١٤٤-١٤٥).

رفاد للدراسات والأبحاث
www.refaad.com

المجلة الدولية للدراسات اللغوية والأدبية العربية
المجلد١ العدد١- ٢٠١٩، ص٣٨- ص٥٣
https://doi.org/DOI:10.31559/JALLS2019.1.1.3

Deceiver Reflection - Critical Analytical Reading in a Book" Rasael Lam Tasel Ba’d "

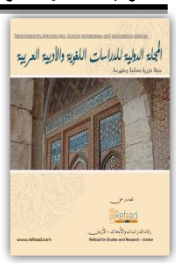

Nadi Sari Al-Deek

Professor at Al-Quds Open University- Ramallah- Palestine
ndeek@qou.edu

Abstract: **"Rasael Lam Tasel Ba’d"** Messages That have not Reached Yet " is one of the books that has received international popularity and therefore was translated into more than one language. It has also received a number of awards from various sides. It has also been reprinted in Arabic several times.

This popularity is due to the fact that the book carries ideas that are closely related to the political scene in the Arab world and particularly to the Palestinian Israeli conflict, The writer agrees to Israel's right for existence on the usurped Palestinian land. He also calls for the establishment of a Palestinian state only on the Palestinian land occupied in 1967. Thus the author has disregarded all the international resolutions that affirm the Palestinian rights and those of the Palestinian refugees. He rejects these resolutions and defends his viewpoint strongly. He uses for this purpose very attractive smooth language, full of allusions, dialogues and artistic and intellectual devices.

In this respect, the author is preparing for the politically unaccepted ideas of the western thinkers and politicians regarding the Palestinian cause .This study aims to reveal and stress the strongly proved facts that the author tried to forget or disregard internationally or unintentionally although the authors ideas reveal a state of interaction and acceptance to these ideas which he calls for and defends.

Keywords: Reflection, Massages, Constructive Criticism.

References:

[1] Ạldyk. N, Ạllgẖh Ạlsẖʿryhʿnd ʿbd Ạllh Ạlbrdwny, Mjlẗ Ạlmʿlm Ạlṭạlb, Mjlh Trbwyh Mḥkmh, Yṣdrhạ Mʿhd Ạltrbyh Ạltạbʿ Llạ̉wnrwạ, Ạlywnskw, Dạỷrẗ Ạltrbyh Wạltʿlym, (2)(1998), ʿm̃ạn, Ạlạ̉rdn, (Ṣfḥạt Mtʿddh Mn Ạlbḥtẖ).

[2] Ạldyk. N, Jrạḥạt Ḥyfạ ʿdẖạbạt Ạlkrml: Ạlsẖkl Wạlmḍmwn Fy Sẖʿr Mḥmwd Drwysẖ (1960 1971), Mw̉ssẗ Ạlạ̉swạr, ʿkạ, Ṭ1, (13) Wmạ Bʿdhạ, (2003)

[3] Ạlflsṭynyyn. D, Mnsẖwrạt Ạtḥạd Ạlktạb Ạlflsṭynyyn, Mṭbʿẗ Ạ̉bw Gẖwsẖ Ạlbyrh, Flsṭyn, Ṭ1, (2001), pp.134,135

[4] Ạlgẖzạwy. ʿ, ʿbdạllh Ạltlạly, Ạlmw̉ssh Ạlʿrbyh Lldrạsạt, Byrwt, Ṭ1, Wdạr Ạlfạrwq, Nạbls, (1998), (Ṣfḥạt Mtʿddh Mn Ạlrwạyh).

[5] Ạlgẖzạwy. ʿ, Rsạỷl Lm Tṣl Bʿd, Ạtḥạd Ạlkuṫạb Ạlflsṭynyyn, Ạlqds, Mṭbʿẗ Dạr Ạlktạb, Ṭ2, (1994), pp.11,12,13,18,24 ,27,29 ,31,32 ,33 .33,34 ,35 ,36 ,37,39 ,40,110,127 ,128,90,109,122,Ṣfḥạt Mtʿddh,49,50,93).

[6] Ạlkẖwạjạ. ʿ & Nmr. M, Tqnyạt Ạlsrd Ạlrwạỷy Fy Ạlḥwạf, Mjlẗ Ạlklmh, Mjlẗ Ạtḥạd Ạlktạb Ạlflsṭynyyn, (11)(2003), pp.35-36

[7] Ạlmshạykẖ. M, Hạjs Ạlktạbh Wmsw̉wlyh Ạlklmh Fy Rwạyẗ ʿbdạllh Ạltlạly, Mjlẗ Ạlklmh, Mjlẗ Ạtḥạd Ạlktạb Ạlflsṭynyyn, (11)(2003), pp.91.

[8] Ạlmtḥdh. Q, Bsẖạn Flsṭyn Wạlṣrạʿ Ạlʿrby ẠlạSrạỷyly, Mw̉ssẗ Ạldrạsạt Ạlflsṭynyh, Byrwt, Lbnạn, (1994), (Ạlktạb Jmyʿh).

[9] Ạltlmsạny. Ḥ, Nfḥ Ạlṭyb Mn Gẖṣn Ạlạ̉ndls Ạlrṭyb, Mj1, Tḥqyq D. ẠḤsạn ʿbạs, Dạr Ṣạdr, Byrwt, (1988), pp.240-241.

[10] Ḥrb. Ạ̉, Ạljạnb Ạlậkẖr Lạ̉rḍ Ạlmʿạd, Mnsẖwrạt Jạmʿẗ Byr Zyt, Ṭ1, (Ṣfḥạt Mtʿddh Mn Ạlrwạyh Nfshạ, (1990)

[11] Mṭr. Ạ̉, Qrạʾh Nqdyh Fy Ạ̉ʿmạl ʿzt Ạlgẖzạwy Ạlrwạỷyh, Mjlẗ ẠḌạʾạt, (6)(1999), pp.144-145

[12] Sẖḥạdh. Ạ̉, Ạlṭryq ẠLy Byrzyt, Mṭạbʿ Ạlnhḍẗ Fy Ạlnạṣrh, Ạlmktbh Ạlḥdytẖh, Ạlnạṣrh, Ṭ1,(Ṣfḥạt Mtʿddh Mn Ạlrwạyh Nfshạ, (1988)